**Travel Memoires Across Cultures and the City of Amman**

**المدائن وصناعة ثقافة الترحال**

د. وليد أحمد السيد

الوطن العمانية, الأحد 16 يونيو 2013

<http://www.alwatan.com/dailyhtml/ashreea.html#10>

**مدينة صغيرة جميلة**
عمّان مدينة صغيرة, يكاد يقطعها الراكب من أقصاها إلى أقصاها في ساعة أو أقل, يكسو مبانيها حجر أبيض, طرقاتها تتحدر مع جبالها المنحدرة, طبيعتها الجغرافية وعرة. فالمدينة تصنع معالمها العمرانية تلالها المتعددة في بانوراما فريدة. جبال المدينة, وهضابها ومرتفعاتها, ولأسباب اقتصادية, تمايزت اجتماعيا وطبقيا. على مدى السنين تغيرت ملامح المدينة عمرانيا – وبشريا. لكن المدينة في طابعها, وطبيعتها, ومركزها التاريخي, ظلت أكبر من تسارعات التغيرات الإجتماعية المتفاقمة التي لا تنفك تتقلب بشكل يصعب على مغترب أو مقيم أن يحصيه أو يلحق به – فضلا عن أن يتنبأ به

!

حاراتها تعيش قصصا وفيها تنام ذكريات كثيرة جمّة. تعاقبت عليها, وفي أحيائها وجبالها, أجيال وأجيال, قطعت رحلات عمر طويلة من مهودها للحودها. عمان المدينة, اتسعت وكبرت خارج حدود الجغرافيا, لتكون مدينة عربية - بامتياز. قلما صادفت في ترحالي وأسفاري, أو في المغترب, عربيا, أو أعجميا, لم يسمع بها, أو يزرها – أو يعقد العزم والنية على ذلك. فبالنسبة للعرب, في الخليج العربي, كانت مقصدا للعلم, أرتادها بعض رجالات وطلبة ممالك وإمارات عربية والتحقوا بجامعاتها. تميز العامل البشري في مهارات عديدة شكلت أبرز رساميل المملكة, فكان الطب ومستشفياتها مقصدا لمن رام الطبابة أو الإستشفاء. جامعاتها الحكومية, كالجامعة الأردنية - في أوج عزها قبل عدة عقود, كانت موئلا ومنهلا للجاليات العربية. تخرّج من كلياتها العلمية والإنسانية رجالات, يصنعون حاضر ممالكهم وإماراتهم, ما زالوا يستذكرون أيامها. قابلت في سلطنة عمان, مثلا, قامات سامقة, تستحضر أيام الدراسة في عمّان. ارتادها من ارتاد من فتنته طبيعتها الجبلية المتحدرة. بعض الزملاء في الخليج العربي يعجبه تنسّم هواؤها الطبيعي (مقابل التكييف الصناعي) والحياة "المعلبة" على حد تعبير بعضهم. أما بالنسبة لبعض العجم, فهي مدينة تمثل حالة وسطا بين الإنفتاح المفرط وبين التزمّت المدقع

.

حكايات هذه المدينة تختلط بين قصص وذكريات طفولة وصبى وشباب, وبين إسهامات متقطعة زمنيا في تشكيل بعضا من ملامح بيئتها العمرانية وبعض الإستشارات التخطيطية لاحقا في قلبها التاريخي. الدافع لكتابة هذه الخواطر, في هذا الوقت من عاصمة الضباب البريطانية, زيارات متكررة عديدة للأهل والمدينة أيقظت مشاعر وخواطر وتأملات ورغبة, مع ضرورة, في تسجيل معالم المدينة المتغيرة بشكل غير مسبوق, عمرانيا واجتماعيا – بعيني فتى نشأ فيها, كدّ وكدح, وحل وارتحل, وطاف وعاين, قبل أن تحمله رياح العلم وطلبه إلى بلاد تبعد آلاف الأميال, حيث استقر ليكتب بقلم معماري تأملات تبرز عظمة تراثها التاريخي "الثابت" مقابل البيئة الإجتماعية "المتغيرة". تظل المدينة, أي مدينة, أكبر وأعظم من ساكنيها – وخاصة إن لم يحفظوا ويرعوا فيها إرثها العمراني, فلئن تنكروا لمركزها التقليدي الذي نشأت منه, وانطلقوا في رحلاتهم العملية من قلبه – تظل هي أعظم وأكبر من أي واحد منهم, ومنهم جميعا.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*
**بوابة المدينة**

للمدن التقليدية بوابات حسية, فرضتها وشكلتها طبيعة العالم القديم ونمط ترحاله, عبر عنه معماريو العالم القديم تعبيرات متعددة, أقلها دفاعية. في المقابل تميز مدن اليوم بوابات "رمزية" من نوع آخر – هي الحدود البرية والجوية كالموانئ والمطارات! وللمطار, في مدينة عمان, قصص وحكايات, روتها سنوات السفر منذ عصور الثمانينيات. هذه الحكايات القديمة جسدت "الحروب الباردة" بين "المسافرين" وبين "ضباط الجوازات". في القديم  كانت العلاقة بين المسافر وبين ضابط المطار كعلاقة السنونو والفأرة, محسوبة بمقادير هندسية أو رياضية متعلقة بالكتلة والمسافة بين الناظر والمنظور – والتي كانت لا تزيد عن بضعة سنتيمترات من زجاج عاكس باتجاه واحد يرى من في باطنه ما بظاهره. في القديم كان ضابط الجوازات  يقبع خلف كابينة زجاجية, عابسا, مكفهر الوجه, كئيبا, غاضبا (لا لسبب واضح), تنذر نظراته بقرب حلول كارثة تقلب يوم الأول رأسا على عقب. كانت الدقائق آنئذ تمر بطيئة وكأنك بالمسافر واقفا ينتظر المساءلة, أو حساب (أو تصفية حساب!) من نوع ما, أوكأن تهمة ما التصقت (أو ستلتصق به ربما لتشابه اسم مع آخر) دون أن يدري. في مشهد درامي متكرر كان مألوفا أن ترى ضابط المطار وقد عاود النظر مرات ومرات في الصورة المثبتة بجواز السفر, ثم ينقل نظراته إلى المسافر الواقف بأعلى خط نظره حيث يجلس, ثم يعيد نقل نظراته مرات ومرات بين صورة جواز السفر التي عفا عليها الدهر, وبين المسافر المتحير. كان الغالب بعدئذ أن يأذن للأخير بالمرور, بعد أن "ينشف ريقه", متمتما بكلمات مقتضبة, زعلانة (تشكو قسوة صاحبها). في بعض الأحيان كانت الكلمات تخرج غير مفهومة مع إيحاءة للمسافر بالعبور والمضي عبر الكابينة, كي يمضي في حال سبيله بعد أن يسمع "طرقعة" ختم الدخول على جواز سفره. في تلكم الأيام لم يكن هناك كمبيوتر ولا ما يحزنون, بل كان رفيق ضابط الجوازات كتاب "كدليل الهاتف" يتم تحديثه به أسماء الممنوعين من السفر أو القدوم. لم يكن السفر في تلك الأحوال, سفر "النوافل" بل كان "سفر المضطر", يسبقه ويصحبه ويلحقه الكثير من التأمل واستحضار "شجاعة" وضرورة لازمة, فضلا عن مهارات ذاتية لتصفية الذهن وتطهير النفس مما علق بها من شوائب و"بهدلات" المطار المباشرة وغير المباشرة

.

وبعيدا عن هذا المشهد في علاقة السنونو بالفأرة, أو المسافر وضابط المطار, فلم يكن السفر بالطائرة أمرا مألوفا للكثيرين, وهنا تحضرني مسألة "شجاعة السفر". أذكر أن أحدهم لم يكن يجرؤ على ركوب الطائرة لوحده وقد بلغ الثلاثين من عمره تقريبا. سافرنا للعديد من البلدان, في رحلات عمل, وكان صاحبنا "يخاف" من ركوب الطائرة – ولم يسافر قط, لا برا ولا بحرا ولا جوا. في نهاية التسعينيات تجرأ "مضطرا" على ركوب الطائرة لأول مرة في حياته, وكنت على الطرف الآخر في انتظاره واستقباله بمطار هيثرو, وراعني مشهده وقد وصل لصالة الإستقبال في المطار, كان وجهه مزيجا من شحوبا وألوان, به حمرة من حبة "البندورة" مع مشحات من ألوان الليمون و"البطيخ" وبعض أنواع الفاكهة الموسمية الأخرى. كانت تفلت منه ضحكات هستيرية "مباغتة", لا إرادية, من هول تجربة "ركوب الطائرة" المربكة و"المريعة". ما زلت أذكر نظراته الزائغة وكأنه طفل ضاع عن والديه. قد يظن البعض أنها "فوبيا ركوب الطائرات" التي قد يعاني منها بعض الناس, لكنها لم تكن كذلك, فقد تلاشى هذا "الرعب" بعد عدة سفرات, إذ كانت المسألة مسألة نقص ثقافة الترحال والخوف من المجهول, مع مزيج من "جُبن فطري", فقد أضحى صاحبنا لاحقا مسجلا على برنامج "أميال" لدى شركة طيران, ولم يعد "بحاجة" من يستقبله أو يدله على الطريق. وفي الحقيقة لا أدري لماذا يحيلني هذا المشهد إلى ما آل إليه عالمنا وشبابنا اليوم, مقابل رجالنا في القديم, حين كان الرجل رجلا فعلا – أبرز وأهم صفاته كانت الشجاعة. ترى اليوم "أشباه رجال", وقد "اختبأ" أحدهم خلف بدلة وربطة عنق, ولو وزن برجال العرب, الأشداء القدماء, لطاش في الميزان ورجح به عاليا مقابل شدة رجال العرب القدماء الذين صاغت حياتهم طبيعة الحياة القاسية ومعترك التجوال والسفر عبر الصحارى في مواجهة أخطار مدلهمة في عتمة الليل البهيم. ولذا شتان بين سفر الأمس وسفر اليوم. كان يقال قديما (السفر يسفر عن "أخلاق" الرجال), وربما أصبح يتوجب تعديل هذا القول اليوم ليصبح (السفر يسفر عن "الرجال"), في زمن ضاعت فيه الرجولة الحقة واستبدلت "بجبناء رعاديد" يلتحفون بدلات وربطات عنق أنيقة, في عالم معاصر اختلط فيه الجهل بالعلم, والقوة والشجاعة بالضعف والجبن, والرجولة الحقة بالذكورية المحضة. وهذا كله يستدعي تساؤلات من وزن ونوع: ماذا جلبت المدنية, وليست المدينة, المعاصرة على طبيعة سكانها, وكيف تصوغ نفسياتهم وعقلياتهم؟

\*\*\*\*\*
**عقيدة وثقافة السفر والترحال**
بالنسبة للكثيرين ما تزال ثقافة الترحال, شبابا وكهولا, ثقافة "ترف" لا لزوم له – ربما أسباب قلّتها, او حتى دوافعها, اقتصادية محضة أحيانا, لكنني أميل للإعتقاد أن سببها الرئيس "ثقافي". ولو طبقنا هذه المعادلة على شرائح من العالمين العربي والغربي لوجدنا أن السبب الأخير هو الغالب, وإلا فما معنى أن أكثر من 80 بالمائة من شعب أغنى دولة على وجه الأرض (الولايات المتحدة الأمريكية) لم يكن لديهم جوازات سفر مع مطلع القرن الحالي. نعم قد تبدو هذه الحقيقة غريبة نوعا ما, لكنها حقيقة صادمة كشفتها أحداث ما بعد سبتمبر, لتعني أن الأغلبية الغالبة من أكثر من 250 مليون أمريكي لم يكن يعرف شيئا عما يدور أبعد من أرضه, أو مكترثا بالترحال والسفر خارج وطنه, فضلا عن أن يكون مكترثا أصلا بما يدور خارجا أو بالسياسة الخارجية لحكومته

.

بالنسبة للعالم العربي, فثقافة السفر والترحال, تمثلت, وربما ما تزال لدى الكثيرين, في رحلة "عمر" واحدة – هي رحلة يتيمة في الغالب إلى الديار الحجازية والأماكن المقدسة بمكة والمدينة – وهذه غالبا ما تمت وتتم بالباصات المريحة المكيفة في العقود الأخيرة, بينما كانت تتم في الثمانينيات في سخانات "شمسية" كانت تجوب عباب الصحاري والقفار العربية, تسيح فيها حبات العرق الغزيرة داخل الباصات على أجساد حجاج ومعتمري بيت الله الحرام, تحت أديم السماء والشمس اللاهبة نهارا, وبرد الصحراء اللاسع ليلا أو فجرا. ليعود بعض هؤلاء "المسافرين" عبر الصحراء ليرووا "بطولات" سائقي الباصات "الدونكيشوتية", وكيف تفادى أحدهم "جملا" سارحا على الطريق. وهكذا تشكلت في تلك الفترة ثقافة جيل كامل في "السفر والترحال" من حكايات "الجمل والطريق الدولي السريع" وما دون ذلك من القصص والحكايات لمسافرين ومسافرات في علاقة الجمل والطرقات وأهوال مطالعة المعتمرين والزوار لمشاهد تفادي الجمال عبر الصحاري والقفار

.

آفة نقص ثقافة السفر والترحال, تجسدت في "ضحالة معرفية" لجيل كامل, والأخطر والأهم نقصا في خبرات حياتية مهمة في التعرف على ثقافات الشعوب الأخرى, وما يصاحب السفر من تنامي "ملكة" وفراسة يكتسبها المرء في "الإستشعار عن بعد", تمكنه بنظرة من معرفة معادن الناس, واستشراف ما تنم عنه عيونهم ونظراتهم ومعرفة وقراءة ما يدور في أذهانهم, والتي يتفادى من خلالها المرء, مرتحلا كان أو مقيما, الكثير من الخدع والنصب والاحتيال, يعرف بهذه الفراسة المكتسبة الصادق من الكاذب, ويتعرف على طبائع وطرائق وعادات شعوب الأرض, معرفة عيان لا معرفة تصور وافتراض وتناقل قصص وخيالات ودبلجات وربما تدليسات. نقص ثقافة الترحال تناقلها جيل عبر جيل, كتركة ثقيلة, وإرث هائل – كأنهم تواصوا بها. في مثل هذه المدائن, وبمعطيات ذينك الجيل, كانت حكايات السفر القليلة تمثل, بالإضافة لانطباعات المدائن التي يعيشون فيها, عالمهم الخاص الذي "تقوقعوا فيه". لم يعرفوا سوى الأخبار البعيدة المنقولة والمتداولة في المجالس, والتي اختلط فيها الكذب مع التدليس, مع شيء من "البهارات والملح الدونكيشوتي" لإضفاء المتعة على أحاديث المجالس, في وقت غاب فيه شهود العيان أو توفي الأقران, فغدا الكذب والبهتان عنوانا للمجالس ورواد الديوان

.

وإدراكا لأهمية ثقافة السفر في صوغ عقل ونفس المرء, حرصت منذ سنوات أن لا تمر مناسبة إلا وأصطحب معي في أسفاري, مختلفة الأهداف والغايات, صغيري موسى. ولذلك فلم يجاوز عمره بضع سنوات حتى طاف دول الخليج العربي برمتها, وبعض دول شمال افريقيا وأوروبا. والمردود كان عظيما جزيلا, فجغرافيا المدن باتت تنمو مع المرتحل, صغيرا وكبيرا, وباتت المدائن التي زارها "تنحفر" حفرا في ذاكرته أفضل من كل دروس الجغرافيا في أفضل جامعات العالم, فضلا عن تنوع الثقافات وتنمية ثقافة معرفية تتأصل وتكبر مع الفتى منذ نشوب أظفاره, لتصبح عقيدة وثقافة في هذا العالم متعدد الثقافات والمتضائل اليوم أكثر فأكثر أمام قوة وسهولة التنقل بيسر وسرعة غير مسبوقة في التاريخ البشري برمته. ولذلك كانت لا تمر بضعة أشهر حتى يسألني عن اليوم الذي سيذهب فيه للمطار, وبات يعرف الدول التي زارها من سلطنة عمان إلى الكويت والإمارات العربية والسعودية وقطر وغيرها من دول الخليج العربي. ومن كل قطر ودولة ما يزال يتعرف على مشترياته ومقتنياته مما بات يشكل علامة ورمزا تاريخيا دالا منذ نعومة أظافره. في أسفاره تعرف على رجال عظماء اجتهدت في تسجيل لحظات تاريخية له, بالتقاط صور معهم, وهذه بحد ذاتها ستكون حافزا يوما ما للسير في ركب هؤلاء الرجال العظام. من الطريف أنه في بعض أسفاري لحضور مؤتمرات, اعتاد أن يسابقني إلى "باجة التعريف بي" ليلبسها بدلا مني حول عنقه في ردهات المؤتمر

.

\*\*\*\*\*\*\*
**السفر والمطار اليوم**
مشهد السفر, وحكايته, والمطار, وللإنصاف تغيرت جميعا تغيرات جذرية هذه الأيام. السفر اليوم صار عنوانه السرعة في كل شيء, بدءا من إمكانية شحن الأمتعة عبر خدمات ومراكز تنتشر في المدينة تتيح للمسافر إيداع حقائبه, قبل أيام من السفر الفعلي والدخول للبوابة والطائرة. مباني المطار أيضا أصبحت بهجة للناظرين, وأصبحت عالما مستقلا بذاته, مدينة داخل مدينة, أصبحت تحوي كل ما يسهم في رفاه وراحة المسافر والمرتحل

.

"الحرب الباردة" بين المسافر والموظف انتهت, وحل محلها "مراقبة وتلصص عن بعد" دون علم المسافر, تحصي عليه سكناته وحركاته. لكن شعور المسافر بالرقابة اللصيقة اختفى. وإذا لم يكن المسافر مثيرا للريبة والشك, فله أن يتجول بحرية كما يشاء مع ابتسامات في أرجاء المطارات. في مطار مدينة عمان, وللأمانة فالموظف بات بشوشا, متعلما, واعيا مثقفا مدركا بأهمية هذه النقطة الحدودية في سياحة ممتازة لبلدة, يمتاز بالخلق والشهامة وسعة الصدر, يدرك تماما أن المسافر منهك متعب من وعثاء سفره الطويل. لذلك فلا يحتاج الدخول وإنهاء إجراءات ختم الجواز سوى أقل من دقيقة مع كلمات الترحاب التي تبعث شعورا بالراحة للعودة للوطن, بين الأهل وبني العشيرة. وللحديث في هذه السلسلة بقية وبقيات

وليد أحمد السيد
لندن في 12 يونيو 2013